

الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر

الجزء الأول

من الثورة العراقية إلى قيام الحرب العالمية الأولى

تأليف

الدكتور محمد محمد حسين

أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة الإسكندرية

منزلة الطبع والتشريع

مكتبة الآداب ومطبعتها بالجواميز ٢٢٧٧٧

الطبعة الأولى والثانية
مكتبة الشاويش بالجمعية العلمية الجديدة

الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر

بسم الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين . وصلاته وسلامه دائمين عاطرين على رسوله الأمين ،
الذى هدانا الله به وأحيانا ، ولولا فضل الله ورحمته لسكننا من الضالين الهالكين .
وبعد فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب (الاتجاهات الوطنية) في جزئه الأول
أدخلت عليها بعض التعديل في الفصل الأخير د نزعات إصلاحية . . ولم يك
يطرأ عليها بعد ذلك شيء يذكر في بقية فصول هذا الجزء . لإقلال . ويستطيع
القارئ أن يلمس مواضع التعديل بالمقارنة بين ذلك الفصل كما جاء في هذه
الطبعة ، وبين ملخصه كما يبدو في مقدمة الطبعة الأولى ، التي أبقيتها كما هي دون
تعديل . ولم يكن من هذا التعديل بدّ بعد أن بدا التناقض واضحاً بين ما جاء
في هذا الفصل وبين ما كتبه بعد ذلك بسنتين في الفصلين الثالث والرابع من
الجزء الثاني لهذا الكتاب ؛ ولا سيما ما يتعلق منه بمحمد عبده وحركته . وقد
اجتمعت لي منه مادة صالحة لا يتسع لها هذا الكتاب أرجو أن يتاح لي نشرها
فيما بعد . وهي تكشف عن جوانب أغفلها الذين كتبوا عنه وأرخوا له .

وقد كنت أحب أن أنجز في هذه الطبعة للجزء الأول ما وعدت به في تقديم
الجزء الثاني من تعميم هذه الاتجاهات لكي تشمل العالم العربي كله — وظروفه
في تقديرى متسابة في خطوطها الكبيرة ، يصدق في كل قطر من أقطاره ما صح
في مصر . فكلها قد مر في فترة التعاق بفكرة الجامعة الإسلامية ، حين كانت
جميعاً جزءاً من دولة إسلامية كبرى تعتبر امتداداً للخلافة الإسلامية وهي
الدولة العثمانية . وكلها قد ظهر فيها صراع بين هذه النزعة الإسلامية التليدة
الموروثة وبين النزعات القومية الطارئة ، التي بدأت طلائعها تظهر واضحة في سائر
البلاد العربية منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجرى . وكلها قد مر بفترة صراع
بين النزعات الإقليمية وبين النزعة العربية التي ترد العرب إلى الوحدة الأصيلة

بعد الفرقة الطارئة . وكلها قد دارت فيه معارك حول تصوير العروبة : هل هي امتداد للإسلامية السابقة ؟ أم هي صورة من القوميات الغربية اللادينية ؟ وكلها قد شغل بالبحث والمناقشة حول أمثل الطرق والأساليب للنهوض والاستعادة القوة والتخلص من أسباب الضعف وآثاره . ولم يكد الخلاف فيها جميعاً يخرج عن اتجاهات ثلاثة : اتجاه يدعو إلى العودة ليناابيع الإسلام الأولى ؛ واتجاه آخر يدعو لاحتذاء الغرب وتبعية خطاه ؛ واتجاه ثالث يدعو إلى إسلامية متطورة يفسر فيها الإسلام تفسيراً يطابق الحضارة الغربية ، ويرر أنماطها وتقاليدها . وكلها قد شغل بمصير الخلافة الإسلامية وواجب المسلمين إزاء إلغاء الحركة الكيالية للخلافة الإسلامية في تركيا وكلها قد دارت فيها معارك فكرية وأدبية بين المتمسكين بالتقاليد الإسلامية والعربية وبين الداعين إلى الحضارة الأوروبية والمفتونين بأساليبها وأنماطها .

كنت أحب أن أنجز وعدى ذاك ، فأعمم هذه الاتجاهات التي تحدثت عنها في هذا الكتاب بجزءيه ولكن ظروفى الراهنة لم تسمح به . فأرجو المَعذرة . ولعلنى أفى بهذا الوعد فيما بعد ، أو لعل غيرى ينهض به . وقد نهض صديق الدكتور ماهر حسن فهمى بشطر منه حين أصدر كتابه (القومية العربية والشعر المعاصر) فى سلسلة « مع العرب » ، التى تصدرها مؤسسة المطبوعات الحديثة ، بالقدر الذى سمح به حجم الكتاب وطبيعته . وقد تفضل مشكوراً بتصحيح تجارب هذا الجزء لبعدى عن مضر أثناء طبعه . والله سبحانه وتعالى هو المستعان . له الحمد فى الأولى والآخرة . ولا حول

ولا قوة إلا به ؟

محمد محمد حسين

بنغازى فى صباح السبت ١٢ من رمضان المبارك ١٣٨١

(١٧ / ٢ / ١٩٦٢ م)

بسم الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

كان اتجأ إلى أول الأمر إلى أن أكتب عن الوطنية في شعر شوقي . ولما اجتمعت لي مادة البحث ، رأيت أن الذين كتبوا عن هذا الشاعر قد ظلوه ظلاماً بيناً في وطنيته . ونظرت فإذا شوقي ليس وحده هو الذي مدح السلطان عبد الحميد ، فقد كان ذلك اتجاه شعراء العصر جميعاً . ونظرت فإذا شوقي لم يكن وحده الموالي لتركيا ، فقد كانت مغاضبة تركيا وقتذاك لا تغني إلا موالاة أعدائهم وأعداء مصر الإنجليز . ونظرت فإذا الرجل لم يكن وحده هو الذي مدح عباساً — وإن تكن صناعته ووظيفته قد اقتضته ذلك — فقد كان عباس في الفترة الأولى من حياته موضع مدح كل الشعراء ، بل وموضع حب المصريين جميعاً وآمالهم .

ورجعت إلى كتابات العصر وصحفه وتاريخه ، فإذا كل ذلك يوحى بأن وطنية هذه الفترة لم تكن هي وطنيتنا ، وأن قيمها لم تكن هي قيمنا ، وأن تفكيرها لم يكن هو تفكيرنا . فالحق في الحكم يرجع في معظمه إلى تغير مفهوم (الوطنية) على مر الأيام . فالذين يدرسون أدب الصحراء والفطرة في الجاهلية ، لا ينصفون إذا وزنوه بموازين الحضارة والمدنية في القرن العشرين . والذين يدرسون شعراء ما قبل الإسلام بظلمون إذا وزنوه بموازين الإسلام . والجيل الذي يولد في هذه الأيام يخطئ إذا درس آداب آبائه بعد عشرين عاماً أو ثلاثين لحكم على الذين يجدها (الملكية) بالحيانة . وكذلك كان شأن الدارسين مع شوقي . لأموه لميوله التركية حين كانت الرابطة العثمانية حديث كل الأمم الإسلامية . وغضوا من قدره لأنه كان رجل القصر حين كان عباس ساكن القصر موضع أمل الوطنيين من المصريين وقوتهم في مقاومة الاحتلال في شطر من حياته .

وعند ذلك خطر لي أن لا أقصر تاريخ الوطنية على شوقي ، وأن أؤرخ للاتجاهات الوطنية في الشعر العربي في مصر جملة ، ورأيت أن مثل هذا البحث

(ح)

قد يصحح كثيراً من الأحكام السابقة العاجلة ، وقد يعين على وضع مقاييس صحيحة للقيم الوطنية وتطورها . فليس من الانصاف أن يحاسب الناس على أسس مباينة كل المباينة أو بعض المباينة لأسس العصر الذى عاشوا فيه وعبروا عن قيمه واتجاهاته . وليس من البحث العلمى أن يدرس الشاعر منفصلاً عن بيئته التى استمد منها تجاربه . ومن هذا يبدو أن البحث فى لبه يستهدف تصحيح القيم الوطنية والقيم النقدية فى دراسة الشعراء المعاصرين .

وقد تبين لى من بعد أن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١١٩) كانت حداً فاصلاً بين عصرين متباينين فى فهم مدلول (الوطنية) . ولذلك رأيت أن أقسم بحق عن (الاتجاهات الوطنية فى الشعر المعاصر) إلى قسمين ، يفتى أولهما إلى قيام الحرب العالمية الأولى ، وهو موضوع بحث هذا الكتاب الذى أقدمه بين يدى القراء . وقد قسمت البحث إلى خمسة فصول .

تكلت فى الفصل الأول عن (الجامعة الإسلامية) فبينت أنها كانت هى النزعة الغالبة على تفكير العصر ، حين لم تكن الفكرة القومية بمعناها الحديث قد سيطرت على الأذهان ، وحين كانت العاطفة الدينية هى المسيطرة على القلوب والأفهام ، وحين كانت الظروف التى تسود العصر توحى بأن الخصومة بين الشرق والغرب هى خصومة بين الاسلام والمسيحية ، أو هى استمرار للحروب الصليبية كما تصور بعض زعماء الوطنية وكتابها . وكان يعين على تدعيم هذا التصور ما يدور من حروب بين تركيا من ناحية وبين الدول الأوروبية الطامعة فى اقتسام أملاكها من ناحية أخرى . هذه تنادى بتحرير الشعوب الأوروبية فى جنوب أوروبا من وحشية المسلمين ، وتلك تنادى بتاسك الشعوب الإسلامية واتحادها أمام الجشع الأوروبى . كما أعان عليه مهاجمة كثير من ساسة الغرب وكتابها للإسلام والمسلمين ، وتصويرهم فى صورة الهمج المتخلفين ، ورد تخلفهم هذا إلى جمود الاسلام الذى لا يصلح فى زعمهم لأن يكون شريعة أمة متمدنة راقية ، وأعان عليه كذلك ما كانت تبذله إنجلترا من جهود دائبة للقضاء على تركيا ، بتشجيع كل مناوى لها وخارج عليها ومذيع لمساوئها ومصور لفساد الحكم فيها .

وبينت في هذا الفصل أن موالاة تركيا والإشادة بها ومدح الفخراء للسلطان عبد الحميد لم يكن في حقيقة أمره إلا تمسكا بخليفة المسلمين الذي يلي أمرهم ويجمع شملهم، وأن الخروج عليه ومهاجمته لم يكن يعنى في أفهام كثرة المعاصرين إلا موالاة المستعمرين أعداء المسلمين . وتنبعت ذلك في مختلف المناسبات والأحداث ، مثل الحركة العربية التي كان يظن أن لإنجلترا هي التي تثيرها ، مستعينة بها على قتل الخلافة الإسلامية التي كانت تريد أن تنقلها إلى أمير عربي تضعه تحت حمايتها ، فتتسلط عن طريقه على رأى الإسلامى العام . ومثل حرب اليونان سنة ١٨٩٧ . والدستور العثمانى ١٩٠٨ ، وسقوط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ ، وحرب طرابلس سنة ١٩١١ . وحرب البلقان وسقوط أدرنة سنة ١٩١٢ . وقُدوم طيارين تركيين إلى مصر سنة ١٩١٤ .

ثم بينت آخر الأمر أن المنادين بالجامعة الإسلامية لم يكونوا جميعاً من المؤيدين للنفوذ التركى في مصر . وأن كثرتهم كانت مدفوعة إلى ذلك بعاطفتها الدينية ، وأن بعضهم كان يتخذ ذلك وسيلة لمناوأة الاستعمار الانجليزى ، وهو يرى بعد ذلك أن التخلص من النفوذ التركى سهل ميسور .

وتكلمت في الفصل الثانى عن (الجامعة المصرية) ، فتنبعت تطور القومية المصرية التي كانت فكرة ناشئة في ذلك الحين ، انتقلت إلى مصر مع ما انتقل إليها من الأفكار الغربية . فكانت صدى للاتجاه العام نحو تبلور القوميات في القرن التاسع عشر . وقد رددت بذور هذا الاتجاه نحو الجامعة المصرية إلى الثورة العربية ، التي كانت تعبيراً عن شعور المصريين بالاضطهاد لإزاء عنصر غريب عنهم هو العنصر الجرکسى . ورأيت أن فكرة الوطنية في ذلك الوقت مختلفة بعض الاختلاف عما نغميه منها اليوم، وأنها كانت مختلطة بالفكرة الإسلامية، لاتدعو إلى الانفصال عن تركيا . وإن كانت تدعو إلى مقاومة استبداد العنصر الجرکسى والنفوذ الأوروبى . وقلت إن هذه الحركة كانت تستهدف إنشاء رابطة عاطفية بين المصرى ووطنه ، تحفزه إلى الاهتمام بأمره والعمل على رفعة ، وأداء واجبه

نحوه من جهة ، والمطالبة بحقه فيه من جهة أخرى . ثم تطورت الفكرة القومية على أبدي أصحاب الثقافات الأوروبية ، وبدأت تهاجم الرابطة الدينية وتعتبرها مصدر شر وتفرقة بين أبناء الجنس الواحد . فدعا هذا الفهم الجديد للوطنية إلى أن يهاجمها المتمسكون بالرابطة الدينية ويعتبروها خطراً يهدد وحدة الأقطار الإسلامية ويضعف تكتلها أمام الدول الأوروبية الطامعة في استعمارها .

ثم خفت صوت القومية وركدت الدعوة إليها زمناً بعد فشل الثورة العربية ، حتى انبعثت من جديد في مختتم القرن التاسع عشر ، متأثرة بفكرة القوميات الأوروبية ، واتخذت شكلين متباينين ، أحدهما يتحدث عن الوطنية حديثاً عاطفياً ، ويتغنى بها كما يتغنى العاشق بمعشوقته ، محاولاً أن يغزو قلوب المصريين بهذا الحب الجديد . والآخر يتحدث عن الوطن حديث العقل والمصلحة ، ولا يستهدف إثارة الناس ولكنه يحاول إقناعهم ، ولا يتغنى بالوطن المحبوب ولكنه يتحدث عن النفع المادى والمصلحة المشتركة التى تجمع بين ساكنيه . وكان الفريق الأول ممثلاً فى مصطفى كامل وهو يدعو إلى جامعة مصرية إسلامية ، ولا ينكر الرابطة العثمانية ، ولكنه يتخذها وسيلة لمناوأة الانجليز . وكان الفريق الثانى ممثلاً فى لطفى السيد كاتب حزب الأمة الأول . وهو يدعو إلى جامعة مصرية خالصة ، ولا يعترف بالرابطة العثمانية لأنها لون من ألوان الاستعمار ، كما أنه لا يعترف بالجامعة الإسلامية لأنها وهم لا سبيل إلى تحقيقه من الناحية العملية . وبينت أن الدعوة الأولى كانت أقرب إلى القلوب ، وأن كثرة الناس قد آزرتها والتفت حولها ، وأن انصراف الناس عن الدعوة الثانية كان يرجع إلى أن دعائها كانوا من كبار الملاك الذين لا يعنون إلا مصالحهم الخاصة حين يتحدثون عن النفع المادى والمصالح المشتركة ، وإلى أنهم قد انصرفوا إلى الكلام عن الإصلاح ولم يهاجموا الاستعمار الذى كانوا يوادونه حرصاً على مصالحهم .

وختمت هذا الفصل بالإشارة إلى ما صاحب هذه الحركة المصرية من اتجاه تاريخى فى الشعر نحو إحياء المجد الفرعونى والمجد العربى ، الذين يمثلان النزعتين

(ك)

السابقتين : القومية المصرية والقومية الاسلامية واتخاذ ذلك وسيلة إلى استنهاض
الهمم ، وبعث الأمل ، ومحاربة اليأس . ورد الثقة إلى الناس الذين تمكن منهم سوء
الظن بأنفسهم حتى قتل فيهم روح الأمل والطموح .

وتكلمت في الفصل الثالث عن (محنة الجامعة المصرية) التي بدت في المؤتمر
القبلى سنة ١٩١٠ والمؤتمر المصرى سنة ١٩١١ . وبيّنت أن الأزيمة ترجع في
جوهرها إلى سوء ظن كل من الفريقين بصاحبه ، وإلى عدم توافر الثقة بين
العنصرين اللذين يكونان الجامعة المصرية ، وإلى الجهل الذى يقود إلى عصبية
عمياء لا تقوم على أساس من منطق أو دين ، وإلى التقاليد الفاسدة التى دعت
القبط إلى أن ينطوخوا على أنفسهم ويقتصرؤا اهتمامهم على مشاكلهم حتى انتهى بهم
الامر إلى أن تتحدث صحفهم عنهم وكأنهم أمة مستقلة لها كيان منفصل عن مصر .
وهاجت الفتنة فبرزت عارية ، بعد قتل بطرس غالى رئيس الوزراء القبطى سنة
١٩١٠ . واعتبر القبط أن عنصرهم هو المقصود بالاعتداء . ودافع الفريق الآخر
عن نفسه بأن الرجل لم يستحق القتل إلا بوصفه مصرياً خان وطنه وأعان عليه
المستعمرين ، وبلغت الخصومة قمتها حين تم انعقاد المؤتمر القبطى فى أسيوط
هـ مارس سنة ١٩١٠ ، مطالباً ببعض المطالبات التى كانت موضوع نقاش عنيف
حادى الصحف ، مما دعا إلى عقد مؤتمر مصرى تم انعقاده فى ٢٩ إبريل سنة ١٩١١ ،
رد على مطالب المؤتمر القبطى التى لا تقوم على أساس من المواطنة المصرية ،
ولسكنها تقوم على أساس الدين وحده .

ثم تكلمت عما استتبعته هذه الخصومة العنيفة من محاولات صادقة للتوفيق
بين عنصري الأمة وتصفية ما بين جيران الوطن من سوء الظن . وانتهيت إلى أن
هذا الشقاق كان محنة امتحنت بها الدعوة الناشئة إلى الجامعة المصرية ، وأنه وإن
كان قلة الخلاف بين عنصري الأمة فقد مهد فى الوقت نفسه للوحدة القومية
المصرية التى بدت فى أقوى مظاهرها فى ثورة سنة ١٩١٩ .

وتكلمت فى الفصل الرابع عن (تيارات سياسية) كانت تتنازع الناس فى

هذا العصر . وجعلت الثورة العرابية هي نقطة البداية في اهتمام الناس بالمسائل السياسية . فقد كثرت فيها حديثهم عن الظلم والظالمين . وعن حقهم في محاسبة السلطان ، وعن الدعوة إلى النظام النيابي وإلى العدالة الاجتماعية وإلى الحد من تغلغل النفوذ الأجنبي . وظهرت فيها آراء جريئة تدعو إلى التخلص من النظام الملكي مفضلة عليه النظام الجمهوري .

ثم تكلمت عن نشأة الصحافة الوطنية بعد ما كان من ركود الحركة حينما واستكانة الناس للهيمنة . فظهرت صحيفة المؤيد سنة ١٨٨٩ ، ثم صحيفة الأستاذ سنة ١٨٩٢ . وبيّنت أن ظهور الحركة الوطنية الحديثة بعد الاستعمار الإنجليزي قد اقترن بحكم عباس . فتكلمت عن وطنيته في أول حكمه ، مما جمع قلوب المصريين حوله . وما كان من تأييده لقادة الحركة الوطنية وعدائه للإنجليز ، مما أدى إلى اصطدامه بكرور . ثم تكلمت عما كان من تراجمه أمام الإنجليز ، وعدم صبره للكفاح ، وانصرافه إلى تنمية ثروته من كل طريق ، واستمرصت سياسته المضطربة المتقلبة التي أدت إلى انصراف الشعب عنه ، بعد أن ساد الوفاق بينه وبين الإنجليز ، حين أرضى جورست — خليفة كرومر — جوعه إلى السلطة وإلى المال .

وبذلك استنفذت الحركة الوطنية جهدها في مهاجمة عباس ، واستراح الإنجليز من اجتماع الشعب والحدوي على حربهم . وقدمت صوراً من شعر الشعراء الذين كانوا يمدحون عباساً في أول حكمه ، فانصرفوا عن ذلك إلى نقد سياسته ، منهم من يعنف في ذلك حتى يبلغ حد الهجاء الذي يعرضه للسجن . ومنهم من يرفق في ذلك فلا يتجاوز العتاب الهين الرقيق .

ثم تكلمت عن السلطينتين اللتين كانتا تتنازعا ن نصريف الشؤون في ذلك الوقت سلطة الاستعمار وسلطة الحدوي ، أو السلطة الفعلية والسلطة الشرعية ، كما كانت تسميهما الصحف في ذلك الحين ، وعن انقسام الصحف بين مؤيد لعباس ومؤيد لكرومر . وتكلمت عن سعي الاستعمار لخلق بطانة له من المصريين ، تحقيقاً

لدياسته التي رسمها لنفسه منذ الاحتلال في أن لا يحكم بطريق مباشر ، وفي أن
ينفذ إرادته بأيد مصرية يقع عليها وزر أعمالها أمام الرأي العام ، فتواجه ثورته ،
وبذلك يقع بأس المصريين بينهم ويستنفدون جهدهم في هذه الخصومة .
ثم بينت أن المصريين كانوا موزعين بين النفوذ التركي والنفوذ الفرنسي والنفوذ
الإنجليزي والقصر . منهم من يلتمس العون على الاستعمار عند الخليفة التركي
حامى المسلمين ، ومنهم من يلتمس عند الفرنسيين المنافسين للاستعمار الإنجليزي .
ومنهم من يحرص على وحدة الصفوف ويشفق من انشقاق المصريين فهو يدعو
إلى الانقياد حول القصر . ومنهم من يؤثر العاجلة ويعيش في حاضره
ولا يطمح إلى خير منه فهو يهادن الإنجليز ولا يطمح في أكثر من دعوتهم إلى
الإصلاح . ومنهم من يتعلق بسيد من هؤلاء السادة لأنه باع نفسه له فهو يؤيده
بالحق وبالباطل .

ثم تسكمت عن تأسيس الأحزاب السياسية في سنة ١٩٠٧ : الحزب الوطني
ومن ورائه السكثرة المثقفة من الشباب ، وهو عنيف في خصومته الاستعمار .
بدأ عهده مؤيدا لعباس وانتهى إلى مخاصمته ، واسكنه لم يهاجم الخلافة العثمانية
في الحالين وحزب الأمة ومن ورائه أعيان مصر وكبار الملاك فيها ، وهو يهادن
الإنجليز ولا يتجاوز جهده الدعوة إلى الإصلاح . وهو يرى أن ذلك هو الطريق
الطبيعي إلى الاستقلال . وحزب الإصلاح وهو حزب قليل الأنصار يدعو إلى
عباس ، فهو لسانه المعبر عن ميوله واتجاهاته . وحزب كان يسمى نفسه بالحزب
الوطني الحر ، وما هو بوطنى وما هو بمرى ؛ فهو دخيل باع نفسه للمحتلين ،
ويتمثل في صحيفة المقطم . وعرضت لما آل إليه أمر هذه الأحزاب من تطرف
في الخصومة وإسراف في الاتهام ضاق به المصلحون ، فارتفعت صيحاتهم منكرا
هذه الممارات ، داعية إلى الاتحاد وجمع الصفوف .

وتسكمت في الفصل الأخير عن (نزعات إصلاحية) لازمت هذا التطور
الفكرى والسياسى . وكان دعائها خليطا من المشتغلين بالسياسة ، ومن كرهوا أن

يزجوا بأنفسهم في هذا المعترك العنيف وآثروا أن يسلكوا طريقاً لا يعرضهم ل غضب الساطان . وكان بعض هؤلاء ينظر إلى عال المهريين الخلقية والاجتماعية ، يحاول أن ينبه إياها ويرسم الطريق إلى معالجتها ، مستوحياً في ذلك الحضارة الغربية وأساليبها ونظمها . وكان فريق آخر ينبه إلى عيوب الأمم الإسلامية وسوء فهمهم الإسلام محاولاً أن يقيم الإصلاح على أساس ديني . ثم بينت أن التفكير الأوروبي قد تجلّى في دعوات كثيرة ، برزت من بينها ثلاث دعوات كبيرة ، شغلت الرأي العام في مستهل القرن العشرين ؛ وهى : الدعوة إلى الحرية الشخصية وإلى الحياة النيابية ، والدعوة إلى فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية وتحرير المفكرين من سلطة رجال الدين ، والدعوة إلى تحرير المرأة من الجهل والحجاب وتمكينها من المشاركة فى الحياة . وبينت أن الدعوتين الأولىين كانتا متأثرتين إلى حد بعيد بما شاع فى الحكم العثمانى الفاسد من ظلم ومن استغلال لنفوذ رجال الدين .

ثم تكلمت عن حركة الإصلاح الإسلامى التى تزعمها محمد عبده ، وتابعه فيها بعض تلاميذه ومعاصريه . وقسمت جهوده فيها إلى قسمين ، اتجه فى أولها - أيام اتصاله بالأفغانى - إلى محاربة ما استولى على المسلمين من ضعف الهمم وفقر العزائم والانصراف عن جهاد الاحتلال . واتجه فى الشطر الثانى إلى التوفيق بين الدين وبين المدنية الحديثة ، وإلى الرد على ما كان يوجه إلى الاسلام من شبهات ، وإلى تقريبه من نفوس الشباب الذين نفروا منه ، متوهمين أن الجمع بينه وبين المدنية والعلم غير مستطاع . وكان من أهم ما اتخذ لذلك من وسائل مشاريعه فى إصلاح الأزهر ، وفتاويه التى كان يجيب بها على السائلين من مختلف الأقطار الإسلامية ، ودروسه التى كان يحضرها عدد كبير من المثقفين والوجهاء .

ثم بينت أثر تجاوز هذين التيارين فى انقسام المفكرين والناس فى مختلف نواحي الحياة إلى مجددين ومحافظين ، مما جر إلى احتدام الخصومة بين المتطرفين من الفريقين . فكان الفريق الأول يهتم الفريق الآخر بالجهل

(ص)

والتخلف والجود. وكان الفريق الثانى يهتم الفريق الأول بالخروج على تقاليد الإسلام ، وربما ذهب فى ذلك إلى اتهام أصحابه بالكفر وبأنهم أذئاب المستعمر وأعدائه ، يساعدونه عن قصد أو عن غير قصد ، بتحبيب الناس فيه بدلا من تنفيرهم منه . وقد نشأ عن تجاوز هذين التيارين تناقض فى الحياة المصرية ، التى جمعت بين المحافظة المتزمتة ، وبين التطرف فى الأخذ بأساليب المدنية الغربية ، فى البيت الواحد فى بعض الأحيان ، مما وضع أثره فى شاعر كشوقي ، تجاوز فى شعره وصف المراتص والخمر ، مع مدائح الرسول وتمجيد الاسلام . وانتهت إلى أن هذه الصيحات المتباينة المتنافرة ، التى كانت تأخذ الناس من كل الجهات ، قد ساعدت على تفتيته الوعى القومى وإفضاج التفكير ، فكانت أشبه شىء بالفوضى التى تمهد للنظام ، وبالسديم الذى ينكشف عن الأجرام ، وبالشك الذى يلد اليقين .

ولم يكن يعنى فى هذه الفصول أن أستقصى الأحداث ، وأن ألم بالتفاصيل . لكن عنايتى قد انصرفت إلى توضيح الخطوط الرئيسية ، والاتجاهات العامة ، والتيارات الأساسية ، التى ظهرت فى هذه الفترة وسيطرت عليها ، مستنبطا ذلك من النصوص الشعرية والنثرية ، مع مطابقتها بالأحداث التاريخية . وأرجو أن أكون قد عاونت بذلك على تصحيح بعض المعايير النقدية ، وتوضيح ما يكتنفها من لبس أو غموض .

ولا يفوتنى فى ختام هذا التقديم أن أشكر السيد ماهر حسن فهمى لما قدم لى من عون فى تاريخ كثير من قصائد شوقي بالرجوع إلى تاريخ نشرها فى الدوريات ، وفى إعداد فهرس هذا الكتاب .

وعلى الله التوكل والاعتماد ، ومنه العون والتوفيق والسداد .

محمد محمد حسين

رمل الاسكندرية } ٢٩ شعبان سنة ١٣٧٢
٢ مايو سنة ١٩٥٤